ابن المقفع وتهمة الزندقة

- نظرة في مؤلفاته -

حسين علي جمعة *

ملخّص

ابن المقفع من رجال الحضارة الإسلامية، وقد ساهم في إثرائها حتى عندما كان زرادشتيًا، لأنه تربّى في كنف هذه الحضارة، وأبدع في لغتها حتى صار من كتاب الخلفاء. ثم حين أسلم صارَ جسرًا للتواصل بين الحضارة الفارسية القديمة وبين الحضارة الإسلامية الوليدة. وهذا التفاعل، أو التعارف بين الحضارات هو وراء كل نهوض حضاري في التاريخ.

ما وصلنا من ابن المقفع يدلّ على صدق إيمانه بالإسلام وإخلاصه لبناء نهضة الأمة الإسلامية في إطار منهج إصلاحي مبني على أسس عقلية صرفة.

غير أن الأقوال في اتهامه بالزندقة كثيرة، وفي المقال عرض لما وصلنا من كتب وما قيل فيها، نخرج منه إلى تبرئة ابن المقفع من التهمة.

---

* - أستاذ جامعة دمشق، رئيس اتحاد الأدباء والكتاب العرب في سوريا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١. مدخل :

خلق الله العقل ليشهد بالحق للمحق وبالباطل للمبطل؛ وعليه أن يفتح نوافذه على تراثه وثقافته، بمثل ما يستوعب ويفيد من ثقافة الآخر وتراثه في الماضي والحاضر.

ومن هنا يؤكد المرء من جديد أن ابن المقفع عاش في مرحلة زمانية مختلطة الثقافات والتيارات الفكرية والسياسية؛ ومتباينة التأثيرات الدينية والمذهبية ... وكأنها أشبه بالأمواج المتلاطمة... وليس هناك من شك في أنه كان في مقتبل عمره يعتنق المانوية المنسوبة إلى (ماني).. وهي واحدة من المذاهب الدينية الفارسية ... ورثها عن أبيه وأسرته وقومه.. وإن كان بعضهم على مذاهب أخرى كالمزدكية نسبة إلى (مزدك) أو الزردشتية نسبة إلى (زردشت بن أسبيمان)[١].

دخل دواوين الولايات في عهد بني أمية سنة (١٢٨هـ) في عهد والي كِرمان يزيد بن عمر بن هبيرة، ثم عهد أخيه داود بن عمر، آخر ولاة بني أمية على (كرمان).. ولم يسلم حتى كان عهد عيسى بن علي (عم أبي العباس السفاح، وأخيه المنصور) سنة (١٣٢هـ) على الأهواز إذ اتصل به، ثم أسلم على يديه في خبر مشهور [٢].

لهذا فإن تقربه من رجال الدولة لم يكن سببًا في إسلامه كما ذكر الدكتور عبداللطيف حمزة[٣]؛ فضلاً عن أنه اتصل بوالي (نيسابور) المسبح الخويلدي ثم واليها سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ..

وقد صان الإسلام حرية الاعتقاد، ولم يكره أحدًا على الإسلام، ولا إكراه في الدين؛ هذا ما كان في عهد الإسلام الأول، واستمر الأمر كذلك حتى العصر العباسي ..

ولم يكن أمر ابن المقفع بدعًا، فهناك العديد من رجالات دولة بني العباس ظلت على عقائدها الأولى وهي تعمل في تأديب أولاد الولاة والخلفاء وفي دواوين الدولة..

في هذا الجو من الحرية الدينية والفكرية كان يعيش ابن المقفع، وإن رافق ذلك فتن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عظيمة كقطع الليل البهيم، فـي الأمور السياسية، ولاسيما المتعلقة بالخلافـة. فقـد شـهد مرحلة تحول الخلافة من بني أمية إلى بني العباس وكاد يحتـرق بنارهـا عنـدما صـادق (عبد الحميد الكاتب) الذي عمل فـي دواوين آخر خلفاء الأمويين مروان بن محمد[٤].

ولما دخل دواوين الدولة ولمس المكائد التي يحوكها القريـب للقريـب، قبـل الغريـب للغريب ابتعد عن الشؤون السياسية؛ وطفق يمارس حريته الفكرية بكل جوانبها مـستغلاً اتقانه لصناعة الكتابة حتى علا شأنه.. ولما انغمس فـي الشأن السياسي، ولم يكن له بـد من هذا؛ دفع رأسه ثمنًا له[٥].

ولا يزال المرء يردد ـــ دون ملل ـــ أن الحرية الفكرية والاجتماعية كانـت مـصونة من قبل الإسلام وولاة أمره من الخلفاء والولاة والقادة.. على عكس الحال فـي الـشأن السياسي. ولا شيء أدل على ذلك من أن المهدي الذي تولى الخلافة من أبيـه المنـصور أمر أهل الجدل والنظر من المتكلمين أن يصنفوا الكتب فـي الردّ على الملحدين[٦]..

وفضلاً عن هذا فقد اشتد الأخذ والرد بين أهل الحديث وأهل الرأي؛ فكان كل رأي يُعرض للمناقشة[٧] من دون تحفظ، وبحرية لا نظير لها.

ومن ثم مارس الأدباء والنقاد واللغويون والفلاسـفة والمفكـرون.. حريـةً اجتماعيـةً وأدبية واسعة فـي حياتهم بلغت مرحلة كبيرة من التطرف فـي الاستهتار وقصف المتـع؛ وشرب الخمرة؛ والهُجْر فـي القول والتغزل بالغلمان.. وكان كثير منـهم يجتمعـون علـى ذلك، ومن ثم لم يمنعوا من الدخول على السلطان.. ما داموا بعيدين عن الإساءة إليـه أو ما داموا لم يتعرضوا لنظام حكمه والنيل منه.

وفـي صميم هذا كله كان ابن المقفع يعيش حياتـه، ويمـارس مهنـة الكتابـة ترجمـة وتأليفًا.. فذاع صيته، وبزّت شهرته كثيرًا من القوم فتناوشته الآراء واختلفت فـي أمـره؛ فقسم منها رآه صحيح الدين قبل إسلامه، وبعده، ومن ثم كان صادق الانتماء لفارسـيته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكنها ليست على حساب ولائه الجديد للأمة الإسلامية؛ والعربية.. وقسم آخر منها وقف في الخندق المقابل يتهمه بالزندقة، والعصبية للفرس باعتباره شعوبيًا خبيثًا.. منافقًا, وأخذ كل قسم يؤيد رأيه بالأدلة العقلية والنقلية *..

هل آثاره تدل على زندقته وشعوبيته؟

يرى العديد من القدماء والمحدثين أن آثاره المترجمة إلى العربية سواء المفقودة أم الموجودة لم تكن إلا دعوة للعقيدة المانوية خاصة ولعقائد فارس عامة.. ومن ثم فهي إحياء كبير لماضي الفرس المتميز بالتقدم الإداري والعمراني والاجتماعي.. إنها إحياء لمدنية فارس ورفعها في وجه التقدم الحضاري العربي والإسلامي، الذي لا يزال بطيئًا؛ إن لم يكن هزيلاً[٨].

ولهذا جعل مناوئوه آثاره المفقودة التي لا تعرف ماهيتها الكاملة والحقيقية سببًا للطعن في صحة دينه، واتهامه بالزندقة والعصبية، ثم أوّلوا بعض رسائله التي وصلت إلينا على ذلك النحو. فكتبه مثل (مزدك) أو (الدرة اليتيمة) أو (رسالة تنْسر) كلها في زعمهم دعوة صريحة للمانوية خاصة ودين المجوس عامة.. بل زعم قوم أن ابن المقفع ما ترجم كتاب (الدرة اليتيمة) وهو كتاب حكمة (لبُزُرْجمهر) إلا معارضة للقرآن الكريم. ومن ثم يرى البيروني محمد بن أحمد (٣٦٢ ــ ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) أن ابن المقفع ما زاد باب (برزويه) في كتاب (كليلة ودمنة) إلا «قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين، وكسرهم للدعوة إلى مذهب المانية»[٩].

وروى الجاحظ عن أبي بكر الأصم (ت٢٢٥هـ) أن ابن المقفع «أوهنه علمه وأذهله حلمه، وأعمته حكمته، وحيرته بصيرته»[١٠] لأنه لم يهتد إلى الحق.

---

* - يذكر الأستاذ الباحث بعد هذا المدخل المفاهيم المختلفة للزندقة، ثم يذكر الأستاذ الدكتور الأسباب والدواعي التي جعلت ابن المقفع متهمًا بالزندقة، ونذكر هنا فقط ما يرتبط بهذه التهمة من خلال مؤلفاته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولعل من أبرز القدماء الذين أشاعوا عليه تهمة الزندقة الإمام الزيدي القاسم بن إبراهيم بن طباطبا بن إسماعيل الديباج؛ إن صحّ أنه ألّف كتاباً سماه «كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع» إذ يرى أحمد أمين أنه ليس للقاسم، ولا هو من مؤلفات القرن الثالث الهجري[١١]. وقد نشر الكتاب الأستاذ ميخائيل أنجلو جويدي سنة (١٩٢٧م) ثم أوضح في مقدمته أن كتاب القاسم بن إبراهيم ردٌّ على كتاب لابن المقفع في معارضة القرآن الكريم فقال : «وقد بيّن القاسم في أوائله أن ابن المقفع وضع كتابًا في معارضة القرآن الكريم، وعاب فيه المرسلين وافترى الكذب على ربّ العالمين»[١٢]. وقد شك أحمد أمين في صحة نسبة الكتاب لابن المقفع لأنه يخالف منهجه في الكتابة[١٣] بيد أن هناك كتابًا اسمه (الدرة اليتيمة) نُسب إليه؛ وهو ما سنناقشه بعد أن نستكمل عرض القضية؛ لنقول : ثم جاء الجاحظ فجعل ابن المقفع واحدًا من الذين يصنعون الرسائل الفارسية والسِّير لإشاعة الشعوبية بين أبناء الأمة..[١٤].

ومن ثم أسهم أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) في إشاعة الزندقة عليه لاستهتاره؛ ليستقر الأمر عند البيروني؛ ومن بعد نقل عبد القادر البغدادي ما وجده عند القدماء[١٥].

هكذا شاعت تهمة الزندقة الملتصقة بابن المقفع بين القدماء في ضوء تفسير آثاره؛ ومن ثم طار بها المحدثون بعيداً، وفي طليعتهم الأستاذ غبرائيلي الذي كتب مقالة باللغة الإيطالية حول (مؤلفات ابن المقفع) في سنة (١٩٣٢م)[١٦] ترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوي ومن ثم نشر ذلك في كتابه (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية)؛ وقد ظهرت طبعته الثانية بالقاهرة سنة (١٩٤٦م).

ونرى أن الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه (ابن المقفع) قد تطرف في أحكامه كثيراً؛ إذ أسسها على أفكار مسبقة، وتأويلات اجتهادية مثيرة. فقد أجج تهمة الزندقة وأكدها على الرجل بمثل ما عاب عليه تعصبه لقومه من الفرس.. ولم يجد له فضيلة واحدة. ومن هنا جعل مفهومه للإصلاح الاجتماعي خدمة موجهة لبني جنسه؛ ولم يكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إسلامه إلا وسيلة للتقرب من السلطان.. لتحقيق ذلك الهدف.

ثم رأى الدكتور حمزة أن ابن المقفع ما أطلق حديثه في سوق المِربد عن صفات الأمم إلا ليسخر من العرب، وليحط من شأنهم بأسلوب غير مباشر، لا يوحي إلا بالخبث والكيد والطعن.. بينما يُعلي من مكانة قومه. والدكتور حمزة يصر على عصبية ابن المقفع لبني جلدته والتهكم من العرب.. فرسالة الصحابة لم تكن أيضًا إلا طعنًا في العرب ونعي تخلفهم، والتعصبَ للفرس.. لأنه يريد أن يبعث مجدهم من جديد[١٧] وقد بدأ مشروعه هذا قبل أن يترجم كتاب كليلة ودمنة... فهو عنده زنديق خبيث متعصب أشد التعصب للفرس؛ وتعصبه هذا جعله يتحسر على ما آل إليه حالهم، مما دفعه إلى ترجمة تراثهم الغابر لاستنهاض هممهم؛ ثم وقع الدكتور شوقي ضيف ـــ على إجلالنا له ـــ في موقع قريب منه، فجعل ابن المقفع كاتباً للفرس[١٨]، فضلاً عن إقراره عليه بالزندقة.

ولسنا الآن في صدد الرد التفصيلي على كل رأي وتفنيده؛ ولكننا سنعرض الردود في إطارها التحليلي التاريخي، ومن ثم فيما تدل عليه آثاره وفق نظرة موضوعية محايدة، ومتكاملة تجمع بين رؤية القدماء والمحدثين.

ونرى أن هناك أوهامًا فكرية عديدة وقع فيها مناوئو ابن المقفع قديمًا وحديثًا؛ لأمور تتعلق أحياناً بالأحكام الغيابية على أثَر غير موجود بين يديهم، أو ترتبط بهوى ما أو فكر مسبق عن الرجل، فضلاً عن تقليد بعض المحدثين لآراء بعض القدماء إما لقدمها، وإما لأنها استهوتهم. وكأن المنهج الذي اتبعه السيد الشريف المرتضى لم يُرْضِ شهوتهم وغرورهم.. فالشريف المرتضى حمل جملة من المقولات التي لم تقنعه؛ ولكنه وازن فيما بينها، ثم نفذ إلى آثار الرجل فوصل إلى حكمه في قلة دين ابن المقفع، كحال كثير من المسلمين المهملين لواجباتهم.

وهذا قد يكون لدينا مقبولاً؛ على اعتبار أن ابن المقفع لم يعش بعد إسلامه إلا نحو عشر سنوات؛ فقد أسلم سنة ١٣٢هـ وقتل سنة ١٤٢ أن ١٤٣هـ. فالشاب العاقل الذي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثقف الفارسية تاريخًا ولغة وثقافة، واعتنق ديانة أهلها حتى قارب السابعة والعشرين من عمره، ليس من اليسير أن يتخلى دفعة واحدة عن كل ماكان يـؤمن بـه ويفكـر فيـه.. ولعل هذا التصور يكشف عما ذهب إليه أبو بكر الأصم من حيرة ابن المقفع[١٩].

ولعل ما انتهينا إليه من قبل فـي حديثنا عن إسلامه؛ ثم عن كتابـه المفقـود (الـدرّة اليتيمة) [٢٠] أو الموجود فـي كتاب (كليلة ودمنة) أو غيرهما[٢١] يثبت صحة مـا نـذهب إليه من براءة ابن المقفع من تهمة الزندقة، وإن لم يكن إسلامه كما هو عليه إسلام رجل الدين.. ومن ثم هو بريء من العصبية بالمعنى الـشعوبي العنـصري الـذي عرفـه بعـض الأفراد الآخرين، على الرغم من أنه خالط عددًا غير قليل منهم بحكم انتـشارهم فـي دواوين الدولة؛ إذ إن بداية الخلافة العباسية ذات مظهر فارسي عامة. ويمكننا فـي هـذا المقام أن نذكّر بعدة أمور لابد منها، ونعتقد بأنها كفيلة بإجلاء الحقيقة، وكـشف الغـشاوة عنها.. وأبرزها :

أ ـــ ليس هناك من أحد ينكر أن ابن المقفع ترجم العديد من الكتب الفارسية القديمة المتعلقة ببني جلدته.. وهي كتب فـي السِّيَر والعقائـد والحِكـم.. والتهـذيب والإرشـاد.. ابتداء بما فقد منها، وانتهاء بما وصل إلينا.

فابن المقفع أقام ترتيب حياته على منهج علمي دقيق منذ حداثة سنه.. فلمـا وجـد الثقافة ضرورة حتمية للكاتب طفق يرود مجاهيلها ومصادرها، وكان على دراية باللغـة الفارسية فنهل مما كتب فيها.. ومن ثم وجد نفسه وقد بلغ من العقـل مـا بلـغ أن يـتعلم العربية، ويحفظ آدابها وعلومها.. وكان يوم ذاك قلبه فارغًا من مفهوم الـدين الـصحيح، لأنه ورث المانوية عن أبيه وقومه...

لهذا وضع هدفه الطموح لترجمة ما يراه مناسبًا فـي حـدود مـا يعقـل ويـراه ملبيًـا لصناعة الكتابة، وتثقيف الكاتب، ككتـاب (مَـزْدك) الـذي أفـاد منـه الجـاحظ ونظـام الملك[٢٢].

بل إننا نذهب أكثر من ذلك؛ فالشاب الطموح كان يراوده وضـع مـشروع تـاريخي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للبشرية،ولم يجد فـي إطار معارفه، وقدراته العقلية إلا الثقافة الفارسية ومـاترجم إليهـا من الأمم الأخرى..فأسرع يغرف منها، فكانت كتبه المتعددة ابتداء من أول كتاب له كما نعتقد وهو كتاب (خداي نامه) ثم (آيين نامه) وغيرهما ثم ترجم مـن الفارسـية القديمـة (كليلة ودمنة) وهو من أصل هندي.. وإن أضاف إليه ما أضاف.. وكان آخـرون غـيره قد ترجموا كتاب (خداي نامه)[٢٣].

ولم يختلف هو عن غيره من المترجمين المعروفين، فقد التقوا أحياناً، وافترقـوا أحيانـاً أخرى.. وإن فاقهم فـي تصوره المنهجي لكتابة التاريخ الـذي يبـدأ مـع بدايـة الخلـق والزمان.. ولا شيء أدل على هذا من أن الفردوسي اعتمد على كتبه التي وصـلت إليـه، وكان بعضها قد وصل إلى ابن قتيبة من قبل واستمد منها كثيراً من معلوماته، ولم يخطـر فـي بالهما أن ينعتاه بالزندقة.. وإن كان ابن قتيبة قد روى خبر حنينه إلى دين المانوية، كما تقدمت الإشارة إليه؛ فضلاً عن أن الجاحظ قد اعترف بتقدمه فـي الأدب[٢٤].

ولهذا نقول: لايمكن لأي كاتب أو باحث أن يكون إلا ذاتـه وثقافتـه، ولا يمكنـه أن يتنكر لأصوله الفارسية وثقافتها.. وهو لم يعرف غيرها آنذاك، ولم تكن قدراتـه العقليـة على اتصافه بالتميز بها.. كافية لتقدير الأشياء تقديراً دقيقًا؛ ومن ثم وضعها فـي الموضع اللائق والدقيق.. فقدمها للناس قبل إسلامه على مايراه يخدم ذاته ووضعه الاجتماعي..

ولما كان علمه أكبر من عقله ـــ كما نوهنا به مـن قبـل ـــ كانـت توجهـه نزعـة إصلاحية أخلاقية مثالية؛ مما جعله يعمل فـي تأديب أولاد الـولاة؛ ولعـل هـذا جعلـه يؤلف (الأدب الكبير والأدب الصغير) وغيره؛ بل **إن النزوع العقلـي الإصـلاحي المثـالي نحا به إلى عرض مكامن الفساد فـي المجتمع والدولة.. فوجد أن الجهل مـصدر أمـراض الرعية، ولا علاج له إلا بالعلم والمعرفة؛ ومحاسـبة الـنفس علـى التقـصير والكـسل .. ورأى أن الظلم والاستبداد مصدر أمراض الحكم، ولا علاج لها بغير العـدل والمـشورة، واختيار البطانة الصالحة ومتابعة محاسبتها.. وهو ما نجده فـي (كليلة ودمنة) و (رسـالة الصحابة).**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولما أيقن بوجود الحرية الفكرية، والاجتماعية شرع يترجم من الكتب ما يلبي نزوعه العقلي الإصلاحي.. وإن كان بعض ما ترجمه أو كتبه لا يقترب من الدين في جوانب منه، أو يتطابق مع مفاهيم الإسلام العديدة، أو مع النزوع العربي القومي.. مما جعل بعض القدماء يتهمونه بالزندقة أو رقة الدين، ثم يشدد بعض المحدثين النكير عليه فيلصقون به تهمة الزندقة والعصبية لفارس.. **بينما لم يفكر إلا أن يقف بين حضارتين حضارة قديمة زالت وفيها بعض ما يفيد، وحضارة ناهضة..**

لهذا نرى أن ابن المقفع لما بلغ من العقل ما بلغ ووصل إلى مرحلة متقدمة من النضج والإدراك، لم تعد المانوية تقنعه باعتبارها دينًا، بحث عن الدين الحقيقي فوجده في الإسلام؛ على علمه بوجود أديان أخرى كاليهودية والمسيحية.. فقد دخل الإسلام قلبه واعتنقه طواعية، وإن لم يتفقه فيه كما هو عليه أهل الدين..

من هنا لزمته الحجة في الذب عن الملّة الإسلامية، والسعي الدؤوب إلى إصلاحها على وجه يرى أنه الحق.. وحيث مزّق بعض ما كتبه مما كان يؤمن به كانت تلك الكتب قد انتشرت أفكارها في الأمة، مثلها مثل كتب الآخرين من المترجمين.. فمن أضلّه الله انحرف عن الحق.. وكان قد أخذ حظه من الالتقاء بمجموعة من الأدباء المستهترين، الذين أثروا في رؤية الناس لابن المقفع.

ولعل هذا ينقلنا إلى كتاب (الدرة اليتيمة) وما كتب في الرد عليه، على اعتبار أنه مما كتب قبل إسلامه.. ومن ثم نشير إلى ما كتب بعد إسلامه، وكلها تؤكد أن ابن المقفع ما اعتنق الإسلام إلا اعتناقاً صحيحاً، ولم يكن ظاهراً.. وكذلك لم يكن إسلامه بسبب رغبته في الدخول إلى السلطان، ومن ثم لم يكن يقصد إفساد العقيدة الإسلامية بالدعوة إلى المانوية.. إذ لم يكن داعياً إليها يوماً، وإن حوت بعض ترجماته جملة من العقائد الفارسية في معرض كتاباته للتاريخ، كما هو كتاب سيرة (مزدك) أو رسالة (تِنْسر).

ب ــ ما قيل في الدرة اليتيمة : كتاب (الدرة اليتيمة) أحد آثاره الهامة التي لقيت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عناية القدماء والمحدثين؛ على اعتبار أنه معارضة للقرآن الكريم.. وربما يكون هذا الوهم قد تأكد بعد كتاب القاسم ابن إبراهيم حين رد عليه في كتابه المسمى (كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع) الذي شك أحمد أمين في صحة نسبته للقاسم، ولعله صحيح.

فالقاسم مبغض لابن المقفع في المذهب، من جهة، ومن جهة أخرى كان ابن المقفع في صف العباسيين.. إذ صار من الملتزمين بالولاء لآل علي عم الخليفة أبي جعفر المنصور وموطدي أركان دولته.. فضلاً عن أن تديّن ابن المقفع كان وسطًا، وهو ليس رجل دين كالقاسم الذي كان واحداً من أئمة الزيدية، فابن المقفع يأخذ من الدنيا أشياء كثيرة من المتع، ولم ينس الآخرة... مما يجعله بعيدًا عن موقف القاسم.. ومن ثم يكون بعيداً جداً عن صفات المانوية.. فالرجل في صفاته وأخلاقه وسلوكه وعاداته يخالف كل مبادئ المانوية الزاهدة في الحياة؛ وما زهدها في المتع إلا من أجل استعجال الفناء، دون الإيمان بالآخرة.. [٢٥].

ولهذا كله فنحن نحترس من اتهام القاسم له بالزندقة؛ إن صحت نسبة كتابه إليه؛ ونسبة (الدرة) إلى ابن المقفع، وبأنه معارضة للقرآن فما يزال مفقودًا. فإذا كان قد وصل إلى القاسم وبنى حكمه عليه فإنه قد وصل إلى القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (٣٣٨ ـ ٤٠٢هـ/ ٩٥٠ ـ ١٠١٣) الذي انتهت إليه رياسة مذهب الأشاعرة.. ومن ثم نظر فيه فلم يجد أي أثر لمعارضة القرآن.. ولعل تخرصات بعض القدماء على ابن المقفع في هذا الشأن دفعته ـــ وهو المتشدد في الحق والدين ـــ إلى القول فيهم : «بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ثم مزّق ماجمع.. ولو كان بقي على اشتباه الحال عليه لم يَخْفَ علينا موضع غفلته، ولم يشتبه لدينا وجه شبهته». وسبق أن قال: «وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة وهي كتابان: أحدهما يتضمن حكمًا منقولة.. والآخر في شيء من الديانات»[٢٦]. فالباقلاني يدرك أن الكتاب ترجم تحت أثر الثقافة الفارسية؛ واستشف من وراء هذا أنه ترجمه قبل أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تلزمه الحجة بالإسلام، ومن ثم العقل؛ فلما أدرك ما فيه من فساد العقيدة مزقه.. وهذا خير على خير..

ولعل ما يؤيد الرأي السابق ما انتهى إليه بروكلمان ؛ إذ يؤكد تأليف الكتاب ثم نسبته لابن المقفع؛ فيقول في معرض تعليقه على رد القاسم بن إبراهيم: «وهذا الرد لا يسمح بالجزم: هل صدر ابن المقفع في محاربته للإسلام عن عقيدة مانوية ثابتة، أو أنه جرى فقط على نزعته الإنسانية العامة، وإن اتصلت أيضًا بمذهب المانوية»[٢٧]. ويتضح من هذا الرأي بكل جلاء أن الكتاب ألف قبل إسلام ابن المقفع.

ونحن لا نشك بوجود الكتاب؛ وإن كان مفقودًا؛ ولعل القاسم من رَدّ عليه، ثم قرأه الباقلاني وأثبت أنه تُرجم قبل إسلامه، ووافق النزوع الذي كان عليه.. من قبل.. وهو نزوع يبتعد عن مفهوم الزندقة، أو ما شاكلها.. ولا شيء يوضح لنا هذا من أن محيي الدين بن عربي وهو محمد بن علي (٥٦٠ ــ ٦٣٨هـ / ١١٦٥ ــ ١٢٤٠م) قد فسر لنا كل مااشتملت عليه أفكار (الدرة اليتيمة).. فإذا لم يصل إلينا الكتاب فقد وصلت إلينا رسائل ابن عربي، وليس فيها شيء يعارض القرآن ــــ وهو رأي تقدمه به القاضي الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) ـ على الرغم من أنه فسرها تفسيرًا يقرب كثيرًا من مفاهيم أهل التصوف.. في كتاب له بعنوان (عظة الألباب وذخيرة الاكتساب) [٢٨].

وبناء على ذلك كله نذهب إلى أن ابن المقفع لم يكن بصدد ترجمة كتاب يعارض فيه القرآن الكريم؛ وإن وقع في كتاب الدرة اليتيمة ما يفيد بنقد ألوان من التشبيه في القرآن[٢٩] ولم ير الباقلاني فيها بأسًا.. ومن ثم فإنه بعد إسلامه وجد ذلك ضربًا من المستحيل؛ إذا صحّ الخبر الذي أوردناه من قبل في رواية صاحب الاحتجاج.. وهو ليس بصحيح .. مما يؤكد أن فكرة معارضة القرآن دعوى باطلة، وكذلك دعوى الزندقة.

بل لو كان الخليفة أو غيره شعر بزندقته أو تعصبه لفارس لما أفلت من العقاب.. وآثاره الباقية تؤيد براءته من كليهما؛ إذا قرئت قراءة موضوعية محايدة.. ونزيهة.. فبعد التمعن فيها لا يوجد كلمة واحدة تؤيد زندقته..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولعل ما تقدم من حديث عن (رسالة الصحابة؛ أو كليلة ودمنة) أو مفاضلته بين الأمم كافٍ[٣٠]، ولكنه يحملنا أمانة الإشارة السريعة إلى حقيقة هامة تتصل بعقاب الخلفاء والولاة للزنادقة والشعوبيين؛ ممهدين لها بقبسة تذكّر بأسماء بعض مؤلفاته الباقية، وتعرض لنص منها...

ج ــ معاقبة الزنادقة والشعوبيين : **سعى ابن المقفع إلى نقل ما يراه مفيداً لحياة الناس، وتهذيب أخلاقهم؛ وتصحيح سلوكهم.. فكان كالشجرة المثمرة التي حملت أنماطاً من الثمر فيه الناضج وغيره؛ مما جعله يلتفت إلى شؤون عديدة تتصف بالنزوع الإصلاحي والأخلاقي..** ولعل آثاره تؤكدها الكتب التي وصلت إلينا، و (رسالة اليتيمة) ورسائله الأخرى التي ضمها محمد كرد علي إلى كتابه المسمى (رسائل البلغاء) [٣١].

ومن رسائله الإخوانية البديعة التي توحي بنفي الزندقة عن الرجل، وتؤيد صدق إسلامه؛ وإن لم يكن وصل إلى مرتبة رجل الدين؛ شأنه شأن كثير من المسلمين قديمًا وحديثًا؛ قوله: «أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذاك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرَع لابد لزارعه من حصاده أو لعَقِبه من بعده... »[٣٢].

فأول ما تطالعنا به هذه الكلمات أنها تمتح دلالاتها وأسلوبها من القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحًا فلنفسه﴾ (فصلت ٤٦/٤١). وهذا النص يوحي بأنه يختلف كثيراً عما كان عليه عندما ترجم كليلة ودمنة (سنة ١٣٣هـ) وقد ترجمه وفي ذهنه فكرة السلطان والرعية؛ وفكرة الصداقة والإخاء.. وهذا يلبي طموحه في الإصلاح ليقف بين حضارتين ينهل من الأولى ليغذي الثانية، التي أخذت أنوارها تشع في الآفاق.. **ترجم الكتاب لما رآه ويراه من دسائس ومؤامرات وخيانات وقتل وتشريد وفساد في الولاة..** فأراد أن يكون الكتاب موجهًا غير مباشر لذوي الألباب، كما تبرزه مقدمته[٣٣].

ولو كان يبغي مصالح دنيوية في الدخول إلى السلطان، أو لكي يجعل إسلامه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسيلة إليه لما كتب هذا الكتاب، ولما كان قد كتب رسالة الصحابة. ولو أن أبا جعفر المنصور ـــ وكان آنذاك وليًا للعهد ـــ استشعر زندقة أو شعوبية، أو طعنًا حقيقيًا في الخلافة والسلطة، وتثويراً للرعية عليها لما أهمل ابن المقفع لحظة واحدة، وليس هناك من يمنعه من معاقبته.. وهو الذي أنفذ قضاءه في أقرب المقربين إلى أخيه أبي العباس، وهو أبو مسلم الخراساني.. فلما أحس منه الخطر على الدولة، وظن به الشعوبية والعنصرية قتله[٣٤].

وكلنا يعرف أن ابن المقفع كان على دين المانوية قبل إسلامه، والمانوية تؤمن بإله النور، وهو إله الخير.. ولهذا يقدس أبناؤها النار ويتعبدون عندها.. ومن هنا يعظمون إبليس لأنه مخلوق من نار.. على حين أن إبليس كان عند ابن المقفع حسوداً بغيضًا إلى نفسه.. وحسده سبب عصيانه.. [٣٥].

وما منا أحد إلا عرف أن أبا جعفر المنصور قد قتل ابن أبي العوجاء على زندقته حين دسّ الأحاديث الشريفة على رسول الله(ص)، ثم قتل المهدي بشارًا وصالح بن عبد القدوس؛ وقيل قتله الرشيد مع غيره[٣٦]. وما كان المنصور ليرحمه لو أيقين بزندقته أو شعوبيته، وهو الذي أمر بقتله على أدنى من ذلك بشأن يتعلق بكتاب الأمان.. علمًا أنه كان يضطغن عليه من قبل لأسباب متعددة.

أما خبر الزنادقة ومن ردّ عليهم وأفحمهم فإننا لا نجد ذكراً لابن المقفع في ذلك كله؛ وإن أدخله الجاحظ في عدادهم. ويعد بعض المعتزلة من أبرز من ردّ على الزنادقة والملحدين وألزموهم الحجة وأفحموهم؛ مثل أبي الهُذَيل العلاف، والجاحظ وبشر بن المعتمر وإبراهيم النظام.. وغيرهم من أهل الملّة الإسلامية[٣٧].

فابن المقفع لم يضع كتابًا في (مثالب العرب) مثل أبي عبيدة معمر بن المثنى[٣٨] ولا أبطل أحد ثقافته أو ما كتبه؛ أو نهى عنها، كما أبطل المهدي رواية حماد الراوية على الملأ في السوق، ولا انسلخ من الدين، وأقر على نفسه بالإلحاد أو الزندقة والشعوبية منذ إسلامه.. ولا ارتكب الفجور وتهتك قولاً وفعلاً[٣٩]. ولم يطلب منه أحد من الولاة أو الخلفاء أن يسلم، ولا كان هذا من صميم عمل أي واحد منهم في داخل الدولة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإسلامية.. بل إن كثيراً منهم صار في حياته وطبائعه أشبه ماكان عليه الفرس أنفسهم من دعة وترف.. فكيف يطلبون إليه الإسلام ؟ !!

وبناء على ذلك كله فآثاره الباقية، أو تلك المفقودة ليس فيها ما يؤكد زندقته لا الزندقة العلمية التي عرف بها الأدباء والمفكرون ولا الزندقة المعروفة عند الناس.

فكيف يكون زنديقًا من يقول : «**وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين وفي الأخلاق وفي الآداب.. ثم يكثر عَرْضه على نفسه، ويكلفها إصلاحه**»[٤٠]. ؟ !

فهذا الكلام يشبه المأثور من كلام عمر بن الخطاب «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا؛ وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا. فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم»[٤١]. ومما يؤيد ذلك قول آخر لابن المقفع : «وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على نفسه أن لا يشغله شغلٌ عن أربع ساعات: ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه..»[٤٢]. وقوله: «الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله إلى خلقه، وأعظمها منفعة؛ وأحمدها في كل حكمة»[٤٣].

وهو الذي يرى أن مَن استخف بالأتقياء أهلك دينه، وقدمهم في المنزلة على الولاة والإخوان فقال: «وأحقُّ من لم يُستخفّ به ثلاثة: الأتقياء والولاة والإخوان، فإنه من استخف بالأتقياء أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان أفسد مروءته»[٤٤].

ولعل الأقوال الكثيرة لابن المقفع في العديد من آثاره تدل بما لايقبل الشك على صدق إيمانه بالإسلام، وإخلاصه لبناء نهضة الأمة الإسلامية في إطار نزوع ثقافي إصلاحي إنساني مبني على منهج عقلي صرف.. ولم يكن النزوع للثقافة الفارسية التي ينهل منها أفكاره سببًا في الارتكاس إلى الشعوبية التي ارتكس إليها بعض الأدباء والمفكرين.. دون أن يتنكر لانتمائه إلى فارس.. ولهذا فإننا لاننكر عليه رجوعه إلى الثقافة الفارسية، ولا تمسكه بانتمائه إلى بني جنسه.. مادام أنه لم يجعلها في إطار شعوبي تعصبي.. وهو مانراه عند كثير من أبناء الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان.. فضلاً عن أن ثقافته ـــ وهو مايزال في مقتبل العمر ـــ كانت بمقتضى حياته التي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمارسها.. فهو لايزال مقيداً بتعاليم أسرته وثقافتها.. فهو لم يكن يملك إلا اللغة الفارسية والعربية.. ترجم بوساطة الثانية ما يعرفه عن ثقافة فارس مثله مثل عدد آخر من المترجمين في عصره، وإن احتل الرئاسة فيهم(٤٥).

ومن هنا ندرك أن ابن المقفع لم يعد كاتبًا أو أديبًا عاديًا؛ بل صارت له مكانة عظيمة في ميادين الترجمة والكتابة واشتهر فيهما وبتأديب الأولاد؛ حتى أدت شهرته في ذلك إلى صناعة الكتب ونسبتها إليه؛ وكتابة الرسائل وترويجها عليه(٤٦).

إنه لم يتعرض للقرآن بأي شبهة من أشكال المعارضة، وليس في آثاره التي بين أيدينا ما يشي بذلك.. بل ما تحتوي عليه إنما تدل على الإجلال كل الإجلال للإسلام وأهله.. وكتاباته ظلت في المقام الأرفع من أي جرح يخدش مروءته ودينه.. ولم تقع ـ كما نراه ـ في موقع يبوء نتيجتها بغضب الله، أو يتعرض لمقته بسبب ما عمله، وهو القائل : «فضل العلم في غير الدين مهلكة، وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قائد إلى النار»(٤٧).

ومن ثم فالتراث الفارسي لم يعد ـ عنده ـ تراثاً متصفاً بالنزوع الفارسي، ولا بالعقيدة المانوية أو غيرها، وإنما غدا رؤية إيمانية مصبوغة بعقيدة الإسلام ومبادئه السامية كما يستشف من قوله: «ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصفٌ بليغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه: لافي تعظيم الله ـ عز وجل ـ وترغيب فيما عنده؛ ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها.. »(٤٨) مما جعله بحق يضع نفسه بين حضارتين، فارسية قديمة وحضارة عربية إسلامية جديدة. وكانت حياته وآراؤه صدىً حقيقيًا لهما، كما في نصيحته للناس في اختيار الإكرام: «إذا أُكرمتَ على دين أو مروءة؛ فذلك فليعجبك!! فإن المروءة لا تزايلك في الدنيا، وإن الدين لا يزايلك في الآخرة»(٤٩) فالإكرام الأعظم في اختيار طريق الدين. وهذا خير ما ننتهي إليه ليتأكد كل ذي لب أن ابن المقفع بريء من الزندقة براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب (عليهما السلام)..

تلك هي قراءتنا لتهمة الزندقة التي رافقتها تهمة الشعوبية في أسبابها ونتائجها ومناقشتها؛ ولعلها تضع الحقيقة ماثلة أمام الأجيال لئلا يسقطوا في مهاوي الانحراف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهوامش:

(١) انظر الفهرست ٤٥٦ ــ ٤٨٤ ومـروج الـذهب ٢٢٩/١ و ٢٤٩ ــ ٢٥١ والملـل والنحـل ٩ ــ ١٢٠ ودراسات فـي الشاهنامه ٢٤٢ ــ ٢٧٧.

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي (بروكلمان) ٩٠/٣ وراجع ماتقدم/ خبر إسلامه /حاشية ٢١ من الفصل الأول.

(٣) انظر ابن المقفع ٤٥.

(٤) راجع ماتقدم ١٨ ــ ٢١ و ٣٢ ــ ٤٢.

(٥) راجع ماتقدم فـي الفصل الأول (مصرعه) بدءاً من الحاشية ٨٣ ومابعدها

(٦) انظر ضحى الإسلام ١٤١/١ وراجع حاشية ١٣ و ١٤ من مدخل الفصل الأول.

(٧) راجع ماتقدم : حاشية ١٣ و ١٤ من مدخل الفصل الأول.

(٨) انظر البيان والتبيين ٢٩/٣ والفن ومذاهبه فـي النثر العربي ١١٠.

(٩) الفن ومذاهبه فـي النثر العربي ١٣٩.

(١٠) رسائل الجاحظ ١٢٥/٢.

(١١)انظر ضحى الإسلام ٢٦٦/١.

(١٢) مقدمة كتاب (الرد على الزنديق اللعين : ص٨) عن تاريخ الأدب العربي (بروكلمان). ١٠١/٣ وراجـع حاشية ٤٤ ــ ٤٧ و ٥٣ من الفصل الأول وانظر حاشية ٧٠ ـ ٧٣ مما يأتي.

(١٣) ضحى الإسلام ٢٢٥/١ وقد بين صفات كتاب ابن المقفع (اليتيمة) وبأن خصائص أسلوبه تغاير أسلوب ابن المقفع، ورأى بروكلمان صحة نسبة الكتاب إلى ابن المقفع، انظر تـاريخ الأدب العـربي ١٠١/٣. وكـذلك ذهب أحمد أمين إلى أن كتاب (الرد على الزنديق اللعين) ليس للقاسم بن إبراهيم فيما وصل إلينا من كتبه وما عرف عنه فـي ردوده المختلفة، انظر ضحى الإسلام ٢٦٦/١.

(١٤) انظر البيان والتبيين ٢٩/٣.

(١٥) انظر خزانة الأدب ٤٥٩/٣ ــ ٤٦٠ وقارنه بما ورد فـي أمالي المرتضى ١٣٥/١ ــ ١٣٧.

(١٦) ابن المقفع ٩٤ ونقله عن الموسوعة الإيطالية مجلد ١٣ لعام ١٩٣٢ م كما يبدو.

(١٧) انظر ابن المقفع ــ زندقة ابن المقفع ــ خاصة ٦٣ وبعد و٨٧ ــ ٨٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١٨) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ١١٠ والعصر العباسي الأول ٥١٠.

(١٩) انظر رسائل الجاحظ ١٢٥/٢ وسيأتي الخبر (١١٤ ــ ١١٥) وراجع ما تقدم في الفصل عن إسلامه.

(٢٠) راجع ما تقدم ٣٢ ــ ٤٢ الحديث الخاص بالدرة اليتيمة وحاشية ٥٥ ــ ٥٦ و ٧٠ من هذا الفصل.

(٢١) راجع ما تقدم ٨٥ ــ ٩٦ الحديث الخاص بكليلة ودمنة وانظر ضحى الإسلام ٢١٦/١.

(٢٢) انظر رسائل الجاحظ ١٢٢/٢ وتاريخ الأدب العربي (بروكلمان) ٩٧/٣ ــ ٩٨ وراجع حاشية ٣٥ ــ ٣٦ من الفصل الثاني.

(٢٣) انظر تاريخ الأدب العربي (بروكلمان) ١٠٢/٣ ومن معاصريه الذين ترجموا (سيَر الفرس) محمد بن الجهم البرمكي، وزادويه بن شاهويه الأصفهاني، وكلاهما ترجم (خداينامك) .. وغيرهما.

(٢٤) انظر رسائل الجاحظ ١٢٢/٢ وتاريخ الأدب العربي (بروكلمان) ١٠٢/٣ وراجع حاشية ٢٣ ــ ٢٥ من الفصل الثاني.

(٢٥) انظر ضحى الإسلام ٢٢٥/١ ــ ٢٢٦ وراجع حاشية ٥٥ ـ ٥٦ مما تقدم وحاشية ٥٣ من الفصل الثاني.

(٢٦) إعجاز القرآن الكريم ٤٦/١ ــ ٤٧ وراجع ماتقدم ٧٨ ــ ٨٣ وحاشية ٥٥ ــ ٥٦ و ٧٠ من هذا الفصل.

(٢٧) تاريخ الأدب العربي (بروكلمان) ١٠١/٣.

(٢٨) المرجع السابق ٩٩/٣ وانظر ثمار القلوب ١٩٩ ــ٢٠٠ وراجع ٧٨ ــ ٨٣ من الفصل الثاني.

(٢٩) المرجع السابق ١٠١/٣.

(٣٠) راجع ماتقدم ٤٣ ــ ٤٧ و ٨٥ ــ ٩٦ و ١١١ ــ ١٢٧.

(٣١) تاريخ الأدب العربي (بروكلمان) ٩٧/٣ ــ ١٠٢.

(٣٢) جمهرة رسائل العرب ٥٧/٣.

(٣٣) راجع ماتقدم ٨٥ ــ ٩٦.

(٣٤) راجع ما تقدم حاشية ١٨ من الفصل الأول.

(٣٥) راجع ماتقدم حاشية ٥٩ من الفصل الأول.

(٣٦) انظر الأغاني ١٨٠/١٤ وأمالي المرتضى ١٣٧/١ ــ ١٤٤ وضحى الإسلام ١٥٥/١.

(٣٧) انظر رسائل الجاحظ ١٢٢/٢ ــ ١٢٣ وأمالي المرتضى ١٤٤/١ وضحى الإسلام ١٦٦/١؛ وراجع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حاشية ٤٤ ـ ٥٠ مما تقدم وحاشية ١٣ ـ ١٤ من مدخل الفصل الأول.

(٣٨) انظر الفهرست ٥٣ ووفيات الأعيان ١٠٥/٣ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢٠٦/١.

(٣٩) انظر الأغاني ١٦٤/٥ وأمالي المرتضى ١٣١/١ ــ ١٣٢ ووفيات الأعيان ١٦٤/١ وضحى الإسلام ١٥٠/١ ــ ١٥١.

(٤٠) الأدب الصغير ٢٤ وانظر أمراء البيان ١٠٥ و ١٠٦.

(٤١) تاريخ عمر بن الخطاب ١٦٠.

(٤٢) الأدب الصغير ٢٦.

(٤٣)الأدب الصغير ٢٨.

(٤٤)الأدب الصغير ٥٢.

(٤٥) انظر رسائل الجاحظ ١٢٢/٢ والفهرست ١٧٢ و ١٨٢ وأمالي المرتضى ١٣٥/١ ــ ١٣٧.

(٤٦) التنبيه والإشراف ٦٦.

(٤٧) الأدب الصغير ٥٧.

(٤٨) الأدب الكبير ٦٨.

(٤٩) الأدب الكبير ١٢٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com